مسارات الحركة الفكرية في العراق ١٩٢١-١٩٥٨
" دراسة في أشكالية الفكر الأشتراكي"

م.م. حسن خلف العلاق
مركز المستنصرية للدراسات العربية والدولية

إن فهم ديناميكية إدارة توازن القوى الفكرية داخل مسارات الدولة والمجتمع يتطلب إدراك التباين الجذري في مستوى النص القيمي والشكلي لدى مختلف تلك القوى ، وتحديد العلاقات التي تربط مستوى النص القيمي والشكلي مع السلوك الباطني والظاهري للدولة والمجتمع . والذي قد ينتج عنهُ خيوطاً رابطة ربما تشكل فيما بعد مجتمع له خصائصه السيكولوجية والأيكولوجية والثقافية الأنية والمستقبلية ، أو قد ينتج قطيعة فكرية تنخر بشكل متتابع الوشائج الاجتماعية الى أن تحول المجتمع إلى كتل بشرية تكون فيها المتنافرات أكثر من المجتمعات حتى تصبح مع مرور الوقت مجتمعات منفصلة ومتقاطعة فكرياً يحمل كل منها الضعف عند الولادة.

من جانب أخر، لما كانت المجموعة البشرية مؤلفة من أفراد ، وأن الحقيقة الأنسانية والبيولوجية والسايكولوجية تشير إلى أزلية الفروق الفردية والجمعية في الميول والرغبات والآراء الفكرية والسياسية ، فقد ذهب العديد من المفكرون الى معالجة أشكالية هذه الفروقات وذلك لغرض تكوين جسم مجتمعي متجانس متفق على الغايات العليا والأهداف الرئيسية لبناء الدولة المتفق على دستورها والنظرية التي ممكن أن يستسقي منها القوانين والقواعد بعيداً عن فوضى تضارب الفروق الفكرية ومحاولات فرض نظرية فكرية سياسية معينة على النظريات الاخرى عن طريق جملة من النظريات المتباينة شرط أن يتفق الشعب على اختيار واحد منها. الأ إن ذلك الطرح لم يكن ليأخذ طريقه في مسارات الحركة الفكرية العراقية أيام العهد الملكي.

فعلى الرغم من أن القاسم المشترك الذي جمع العديد من التيارات الفكرية والسياسية ومنها " التيار الأشتراكي" خلال ذلك العهد وهو معاداتهم للأستعمار ،والذي كانت من نتائجه هو التحالف الجبهوي لأكثر من مرةٍ بين " التيار الاشتراكي و التيار القومي" في (الجبهة الوطنية الموحدة عام ١٩٥٤)، (وجبهة الأتحاد الوطني عام ١٩٥٧) . الآ إن الخلافات الفكرية أستمرت قائمة بينهما ثم تعدى الأمر إلى أكثر من ذلك.

وفي الحقيقة ، فأن " التيار القومي " كان يعتبر من ألذ اعداء "التيار الأشتراكي" ونظريته الماركسية وحزبه الشيوعي ، لأن " التيار الأشتراكي" في نظر " التيار القومي" هو خادماً لليهود ، وعبداً للسوفيت . فيما كان " التيار الاشتراكي" يعتبر " التيار القومي" هو من صنائع الأمريكان واخذ يصف تاريخ القومية بأنه تاريخاً ملطخاً بالدماء ، ومملوءاً بالفضائح ، ومحشواً بالأكاذيب وأن مفهوم القومية بنظر " التيار الاشتراكي" هو مفهوماً قبلياً ذات طابع فاشي.

والذي يبدو ، هو إن سبب تحامل " التيار الأشتراكي: على فكرة القومية هي لأن " الاشتراكية إممية النظرة لذلك فهي ترى في إن القومية هي عقبة واقفة أمام هدفها

الأساسي الخاص في قيام إسرة دولية متجانسة . ولو أن البعض من مفكري " التيار الاشتراكي" يرون في " أن الماركسية ليست عدوة للقومية التحررية البناءة التقدمية ، بل هي عدوة القومية العنصرية الأعتدائية التوسعية وأنها عدوة الفاشية فقط".

ونتيجة لذلك ، فقد أثارت الطروحات حفيظة " التيار القومي" فقد أكد على أن " التيار الاشتراكي" ماهو الاّ عصابة دكتاتورية العقيدة والتنظيم وهي تحمل في صُلب عقيدتها إصول انحرافها.

على صعيد أخر، شن " التيار الإسلامي هجوماً على على " التيار الاشتراكي" ، فقد دعى " حزب التحرير" الى مكافحة الطرح الروسي، لأن روسيا تعمل بواسطة عملائها وتدعوا الناس الى اعتناق الشيوعية ،وتحويل المجتمع الى مجتمع شيوعي بمجي أثار الأسلام مستغلين الظلم السياسي والاقتصادي الذي تعيشه البلاد الاسلامية.

وللأقتراب من ابعاد الصورة أكثر فأن " التيار الاشتراكي" ونظرياته الفكرية لاسيما الماركسية تقف في صف نظريات العامل الطبيعي التي لاترى للأدارة الأنسانية دوراً في صراع الحياة ،وانما إرادته تابعة للعامل القتصادي وحتى ثقافته وأفكاره على العكس من " التيار الاسلامي" ونظرياته الفكرية التي ترى في أن الحياة هي من صنع الانسان، وأن الانسان هو صانع الحياة ومحرك وجودها.

بالقابل ، استمر " التيار الاشتراكي" عن طريق حركاته الفكرية والسياسية ذات الطابع الشيوعي خصوصاً يؤكد على ان الديانات ماهي إلاّ اداة بيد الأقوياء لأظطهاد المحرومين . وهذا يعني أن الدين في نظر الشيوعية يسد الأدارة لخداع الشعوب ورسم صورة خيالية للمجتمع . بتعبير أوضح ، أن الدين مخدراً للشعوب ومعطلاً لانطلاق طاقاتهم ،وبالتالي فأن الدين يثقل كاهل الثورة الأجتماعية ، لأنه يؤدي إلى اذلال التفسير البشرية ، ومهارات النظام السياسي القائم ، وعدم التسامح مع المذاهب الفكرية الأخرى.

ثمة حقيقة تاريخية، تشير الى أن إشكالية " التيار الاشتراكي" لاتكمن في الصراع الفكري مع بقية التيارات الاخرى فقط، بل تكمن ايضاً في إن ذلك التيار كان يتصارع حتى مع نفسه بسبب الانشقاقات الفكرية بين صفوفه ، فعلى سبيل المثال وصف (يوسف متى) وهو حد ابرز اعضاء " جماعة الأهالي" القريبة من التوجه الاشتراكي بأن احد اعضائها عبارة عن " عساكر وجنود إحتياط للحكومة العراقية المرتبطة بالاستعمار".

من جهة أخرى، يبدو إن الطبقة السياسية العراقية الحاكمة كانت تغذي الصراع الفكري القائم بين التيارات والنظريات الفكرية القائمة حينذاك . فقد رأت تلك الطبقة في أنها ومهما سعت في تشويه صورة " التيار الاشتراكي" وتحديدا الشيوعية ، فأنها ليست بمقدورها ان تقضي عليها نهائياً لذلك أقدمت على السماح لأقطاب " التيار الاشتراكي" بتأسيس احزابا سياسية ذات صفة اشتراكية عسى أن يكون بمقدورها تشويه ذلك التيار في نظر المجتمع " كحزب الامة الاشتراكي" الذي تأسس عام ١٩٥١.

وعلى الرغم من كل تلك المناورات الاّ أن افكار " التيار الاشتراكي" استمرت تستهوى عقول الجماهير بفكرها التقدمي والتحرري ، مما دفع الطبقة الحاكمة الى أن تصدر العديد من القوانين الجائرة بحق مناصري الفكر الاشتراكي ، فقد استقطت الجنسية العراقية عن العديد من الذين حكموا بتهمة الأنتماء الى الشيوعية . لذلك عانى " التيار الاشتراكي" خلال العهد الملكي الأمرين داخل حركتة السياسية ونظريته الفكرية بعدما اصطدم بالنظام القائم من جهة وبالنظريات الفكرية الموجودة آنذك من جهة أخرى.

وعلى وفق ماتقدم ، فأن " التيار الاشتراكي" وعلى الرغم من حظوره الوطني ، وثباته في العقيدة ، الاّ أن هناك العديد من الأسباب التي أدت الى شلل حركته ، بسبب الآشكالية التي أخذت تحوم بداخله وفي محيطه الفكري والسياسي ، فمن جهة كان يرى أنه لما كانت الطبقية هي الاساس في الصراع السياسي فسوق لن يكون الحق الاّ بالقضاء على الطبقية ، وازلية تلك الظاهرة من المجتمع لذلك فهي توفر تماسكاً طوعياً في جميع مناطق الهرم الأجتماعي. وإن التماسك المفروض بقوة الطبقة العاملة يتحلل عند أقرب فرصة تساعد ديناميكية حرية حركة الافراد في اختيار مصيرهم والمشاركة في مؤسسات الدولة وصياغة غاياتها العليا .

أما الأزمات الفكرية والتنظيمية الاخرى التي كان يمر بها " التيار الاشتراكي" والتي سببت له العديد من الاشكاليات التي رافقته، فهي عديدة منها إنه ما زال مترسخاً في ذهن العامة حينذاك إن الشيوعية والماركسية وبعض ادبيات الفكر الاشتراكي ماهي الاّ كفر وإلحاد . وإن الغريب في الامر ان ذلك الطرح ظل مترسخا عند العامة. الامر الذي يؤكد على أن الافكار الاشتراكية أستمرت تعيش في قصور فكري واضح. بتعبير ادق أن الفكر الاشتراكي لم يكن قادراً على تطبيق النظرية الماركسية على الواقع العربي ،واعادة تجديدها في ضوء تجاربه الخاصة ، لأنه دائماً يحتكم الى ان تجاربه هي التجارب الوحيدة التي لم تخطيء وهي التي تؤخذ منها الدلالات وأن ايمان" التيار الاشتراكي" بالماركسية جعل ارتباطهم بالمركز " الاتحاد السوفيتي " اقوى من ارتباط بالبلاد العربية ، فضلاً عن أن ذلك الارتباط جعل ذلك الفكر متعالياً ومتجاهلاً للثقافة الوطنية واعتبارها ادنى من الثقافات السوفيتية والاوربية الغربية.

مما سبق يبدو واضحاً، إن عمليات تأكل وإنهيار الدولة العراقية خلال العهد الملكي هي عمليات داخلية وخارجيته أخذ الافراد والجماعات والنظريات والتيارات الفكرية ومنها " التيار الاشتراكي" دوراً أساسياً في حركتها السياسية وبمقدار التأثير والربط الخارجي ايضاً والذي ادى بدوره الى تأكل تلك الدولة وانهيار نظامها السياسي عام ١٩٥٨ ، لأن الضعف الداخلي يولد استقطاباً خارجياً تشتد حدته في الدولة الضعيفة السائرة صوت التفكك.